

الفصل ٣

التواصل: مفتاح العلاقات الاجتماعية

قد تكون الكفاءة في العلاقات الاجتماعية أهم العوامل التي تحدد إن كان الأطفال الموهوبين سيصبحون أعضاء ناجحين ومهمين ومساهمين في بناء المجتمع أم لا. ويقوم الوالدان بدور مهم جداً في تنمية هذه العلاقات لدى أبنائهم من خلال القدوة والتفاعل معهم. ويتعلم الأطفال، من خلال العلاقات الاجتماعية، كيف يتفاعل الناس بعضهم مع بعض، وماذا يتوقع منهم الآخرون، وماذا يمكن أن يتوقعوا هم من الآخرين. كما أنهم يتعلمون أموراً كثيرة حول أنفسهم. لذا فإن تنمية التواصل الإيجابي الضروري لتطوير علاقات صحيحة هي من أكبر مسؤوليات الوالدين.

ومنذ أن يولد الأطفال يبدأ التواصل في الأفعال والسلوكيات كافة، وعندئذٍ تبدأ العلاقات بين الطفل وذويه. فيحاول الوالدان فهم حاجات الطفل من خلال بكائه وسلوكياته الأخرى فيستجيبان لذلك بتزويده بالطعام والراحة. وعندما يتكلم الوالدان، يتتبع الأطفال أصواتهما وابتساماتهما أو مداعباتهما اللغوية، ثم يبدؤون تدريجياً بالتفاعل معهما. وعندما يتحدث الوالدان مع الأطفال ويشجعانهم على التسم وتقليد أصواتهما التي سمعوها، تبدأ العلاقات بالتطور ويتعلم الأطفال توقعات الوالدين وطرق إرضائهما. ويمر الوقت وينمو الأطفال، وما هو إلا وقت قصير حتى يبلغ الطفل العاشرة من عمره ويكون في الصف الرابع أو الخامس. وتأتي المدرسة الثانوية أسرع مما يرغب كثير من الوالدين. ويتغير التواصل، عبر هذه السنين، مع تطور العلاقات بين الطفل والآخريين.

وكلما تقدم الأطفال في العمر وأصبحوا أكثر اعتماداً على أنفسهم، أصبح التواصل أصعب من ذي قبل، لاسيما إذا لم يؤسس الراشدون علاقات قوية مع الطفل في سنوات عمره الأولى. كما أن التواصل يزداد صعوبة إذا مرت العائلة أزمة شديدة، مثل المرض أو الطلاق أو الموت، فيضطر الأطفال، في هذه الحالات، إلى «إغلاق» منافذ التواصل مع الوالدين، ويفضّلون التعامل مع أفكارهم ومشاعرهم بطريقة خاصة. ولن يعاد فتح قنوات الاتصال إلا بوجود علاقة تواصل قوية بين الطفل والديه.

التواصل، إذن، عامل أساسي في أي علاقة من العلاقات العائلية، ولكنه عامل مهم بصورة خاصة حينما يتعلق الأمر بطفلك الموهوب. فعلاقتك بطفلك أهم من أي فرص تربوية أو إثرائية لتحسين مستقبله بعيد المدى. ولا شك في أن هذه العلاقة سوف تتضرر كثيراً إذا لم يتوفر لها مستوى جيد من التواصل الاجتماعي. وعندما يكون التواصل صحياً ومنفتحاً تسير الأمور العائلية بكل يسر وسهولة، وتنمو العلاقات بين أفراد العائلة بدرجة كبيرة. وفي سياق العلاقات العائلية يطور الطفل شعوراً بذاته، ويساعده التواصل على بناء الثقة وتقدير الذات، فيتعلم من خلال هذه الخبرات كيف يتفاعل مع غيره ويكون علاقات إيجابية معهم، سواء أكان ذلك داخل العائلة أم خارجها.

أي مهارات التواصل التي تمثل أنت نموذجاً لها؟

يتعلم الأطفال حول التواصل والعلاقات الاجتماعية بثلاث طرائق رئيسة هي: أولاً، تفاعل الوالدين معهم؛ وثانياً، ملاحظة تفاعل الوالدين مع الآخرين؛ وثالثاً، تفاعل الأطفال مع الآخرين. فالطريقة التي يتصرف بها الوالدان أحياناً، خاصة في أوقات الاختلافات أو في أثناء ضبط الأطفال، قد تعيق التواصل الصحي معهم لأنها تثبط الثقة والانفتاح. إن علو الصوت والصراخ قد يخيفان الأطفال الذين قد لا يغامرون عندئذٍ بالمشاركة الصريحة. وإذا كان الصراخ نمطاً ثابتاً عند الوالدين، فإنهما يفقدان ثقة أطفالهما بهما.

أما الاختلافات فإنها جزء من الحياة العادية في العائلة، ولكنها من المحتمل أن تولد مواقف يضر فيها الكبار إلى التصرف بطريقة تثبط التواصل. وفيما يأتي بعض الاقتراحات التي ينصح بها عالم النفس مارتن سيليجمان Martin Seligman لكبح السلوكات التي يمكن أن تعيق التواصل الإيجابي أو تعطل العلاقات بين الوالدين والطفل وهي:

- لا تمارس التصرفات العدوانية أمام طفلك؛ بما في ذلك رمي الأشياء أو إغلاق الأبواب بشدة. فهذه تصرفات تخيف الأطفال كثيراً.
- عبّر عن مشاعرك لفظياً حيثما أمكن ذلك، والجبأ إلى التوكيد بدلاً من العدوان، وقل للطفل مثلاً "أنا فعلاً منزعج (أو غضبان أو محبط، إلخ) في هذه اللحظة".
- كن قدوة في ضبط الغضب، وحاول أن تهدئ الأمور وتلطف من غضبك، فقل مثلاً: "سأذهب إلى الخارج حتى يهدأ غضبي قليلاً قبل أن نتحدث في هذا الأمر".
- لا ينتقد أحدكما الآخر أمام الأطفال وينعته بصفات دائمة وثابتة (مثل: أبوكم دائماً يفعل كذا....، أو "أمكم لا.... أبداً").
- إذا اضطرت إلى انتقاد شريك حياتك على مسمع من الأطفال، فاستعمل لغة تنتقد بها سلوكات معينة بدلاً من انتقاد الشخصية كاملة.
- لا تتعامل مع شريك حياتك "معاملة صامتة" وتظن أن الأطفال لا يلاحظون ذلك.
- لا تطلب إلى الطفل أن يختار الوقوف إلى جانب أحد الوالدين.
- لا تبدأ جدالاً أو خلافًا مع شريك حياتك أو حتى مع أحد الأصدقاء أمام الطفل، إلا إذا كنت تخطط لإنهاء ذلك الخلاف أو الجدل في جلسة المناقشة ذاتها.
- حاول أن تحل الصراعات وأن تتصالح مع الآخرين على مرأى من الطفل، فهذا سوف يبيّن له أن الصراع جزء طبيعي من الحب والعلاقات بين الناس وأنه يمكن حل هذه الصراعات. وإذا لم يتمكن طفلك من رؤيتك تحل صراعاً أو تنهي جدالاً مع الآخرين، فإنه لن يعرف كيف يفعل ذلك بنفسه.

- تجنب مناقشة بعض القضايا أو مواضيع معينة مع زوجتك أو شريك حياتك عند وجود الأطفال، ولتكن المناقشة في مكان خاص بعيداً عن سمع الأطفال وبصرهم.

عوائق التوصل والعلاقات

لكي يطور الناس علاقات صحيحة وإيجابية، فإنهم يحتاجون إلى قضاء الوقت معاً، والتشارك في الأنشطة وتبادل الأفكار والمشاعر. ومع أن ذلك قد يبدو سهلاً، إلا أنه قد يكون صعب التحقيق؛ لأن هناك عوائق وموانع مخفية تؤثر في التوصل. ففي ثقافة هذه الأيام التي تتصف بالتسارع يجد الوالدان والأطفال أنفسهم في أغلب الأحيان مضطرين إلى الاستجابة لما يبدو أنه ملحٌ وضروري، مما يتداخل مع التوصل وبناء العلاقات. فالتطورات التقنية مثل الهاتف المحمول وأجهزة التنبيه الأخرى، وأدوات الإنترنت المحمولة باليد، والإنترنت اللاسلكي تحافظ على الاتصال بين الناس، ولكنها، في الوقت ذاته، تجعلهم مشتتين في اتجاهات متعددة. وقد وجد استطلاع قامت به مؤسسة عائلة كايزر «Kaiser Family Foundation»^٢ عام ٢٠٠٥، أن الشباب في الولايات المتحدة يقضون نحواً من سبع ساعات يومياً وهم يتفاعلون مع الآلات لا مع الناس - منها أربع ساعات يشاهدون فيها التلفاز أو الفيديو، وساعة يستخدمون فيها حواسيبهم لأغراض غير دراسية، وساعة تقريباً يمارسون فيها ألعاب الفيديو، وساعة أو أكثر يستمعون فيها إلى المذياع أو الأغاني على الأشرطة أو الأقراص المدمجة. ويقضي الشباب ساعتين تقريباً يتفاعلون مع الوالدين بطريقة أو بأخرى، وأقل من ساعة يقضونها في قراءة الكتب والمجلات أو الصحف المحلية اليومية لأغراض لا تتعلق بالعمل المدرسي!

وعلى الرغم من أن هذا التعامل المتسارع مع هذه الأجهزة التقنية قد يثير الشباب ويبعث السرور في أنفسهم، إلا أنه في حقيقة الأمر يعيق الأحاديث البطيئة المتعمقة ويصرف انتباه الشباب عنها، مع أنها مهمة وضرورية لتأسيس العلاقات الشخصية ذات المعنى مع الكبار وتطويرها. إن الأجهزة الصغيرة الجامدة مثل الهواتف النقالة أو أجهزة بث الموسيقى (آيبود iPod) لا تظهر أي مشاعر أو أي سلوكيات يمكن للأطفال تقليدها. وعلى الوالدين أن ينتبهوا إلى المقدار الذي تحدّ به هذه الأجهزة من التوصل بين أفراد العائلة. هل تناولت طعامك يوماً في مطعم ولاحظت كيف يتناول الناس طعامهم دون أن يتحدث بعضهم إلى بعض؟ لقد أصبح التقليد العائلي في تناول الطعام معاً حيث يشارك كل فرد في النقاش - وهذه طريقة قوية جداً لتنمية التوصل وبناء العلاقات - أصبح ذلك تراثاً من الماضي عند الكثيرين في هذه الأيام.

إن تصوير وسائل الإعلام لعملية التوصل لا يجدي نفعاً؛ فهي تطرح وجهة نظر ملتوية ونادراً ما توضح العلاقات الصحيحة. وحتى التلفاز الواقعي، هو أبعد ما يكون عن الحقيقة. كما أن التقارير الإخبارية المسائية لا تعرض سوى سلوكيات منحرفة ومثيرة وغير عادية - مثل تزايد وتيرة الحوادث، ومطاردات رجال الأمن، والجرائم، والحروب والتفجيرات، والفقر والتطهير العرقي - التي تنقل للأطفال أن هذا العالم غير آمن ولا يمكن لأحد أن يسترخي فيه ويثق بالآخرين بما يمكنه من التوصل معهم وبناء علاقات مثمرة بينه وبينهم؛ فتؤدي هذه العوامل إلى تناقص مستمر في التفاعل مع الآخرين،

مما يؤثر بدوره في تطور التواصل وبناء العلاقات الاجتماعية. وقد أظهر استطلاع للرأي عام ٢٠٠٦ أن شخصاً واحداً من كل أربعة أشخاص لا يجد من يناقش معه الأمور المهمة، كما أشار الناس من الفئات المختلفة التي شملها الاستطلاع (مثلاً، العرق، والعمر ومستوى التعليم) إلى أن لديهم عدداً من الأصدقاء الحميمين أقل مما كان لدى الناس الذين شاركوا في استطلاع مماثل قبل ٢٠ عاماً. كما كشفت هذه الدراسة أن المودة بين أفراد العائلة الواحدة أصبحت أقل من ذي قبل.^٢

التواصل والمشاعر مترابطان

من حسن الحظ أن عوائق الاتصال يمكن التغلب عليها، فما الطرق، بالإضافة إلى النمذجة أو القدوة، التي يمكن أن تساعد الأطفال على تعلم التواصل وبناء العلاقات الصحيحة؟ تذكر أولاً، أن لكل صور التواصل بعداً انفعالياً. فنبرة الصوت، وحدته وارتفاعه، والوضع الجسمي، والإيماءات تنقل مشاعر معينة. وهذه المشاعر تؤثر في كيفية استقبال طفلك، وكيفية سماعه واستجابته لما تقول. ولكي نوضح ذلك، الفُظ الحروف الهجائية الأربعة الأولى كالمعتاد؛ ثم الفظها بطريقة توحى بالغضب، ثم بالحنن، وأخيراً بنبرة سعيدة. لاحظ الاختلاف الواضح في المعلومات الانفعالية التي تنقلها للطفل عبر تغيير نبرة صوتك وشدته، حتى عندما تكون الحروف (أو الكلمات) هي ذاتها. إن من السهل علينا أن ننسى البعد الانفعالي للكلمات التي نتلفظ بها؛ لذا فإن علينا الانتباه إلى الكلمات ونبرة الصوت والمشاعر التي ننقلها من خلال هذه الكلمات.

ثم اعرف، ثانياً، أن نقل المشاعر يكون أيضاً من خلال السلوك. فعندما يغلق الطفل الباب بقوة، فإننا نعلم أن لديه مشاعر غضب قوية. ونحن، بوصفنا آباء، نميل إلى انتقاد ذلك السلوك ونفشل في الاستجابة لمشاعر الطفل التي ولدت هذا السلوك. لقد كان للبعد الانفعالي (الغضب في هذه الحالة) دور مهم في عملية إغلاق الباب بعنف؛ ومعرفتك لذلك من البداية سوف تسهل عليك التواصل مع طفلك. ويمكنك أن تقول له: «إنني أرى أنك غضبان؛ لكنني أفضل أن تستعمل الكلمات لتخبرني بذلك بدلاً من إغلاق الباب بهذه الطريقة». إن قولك هذا من شأنه أن يساعد الطفل على التحدث عما يقلقه، إن لم يكن في هذه اللحظة فربما في المستقبل.

نحن نعلم أن الانفعالات يمكن أن تؤثر جذرياً في التحصيل الدراسي للطفل، وحتى في درجات ذكائه أو درجات الاختبارات الأخرى. ويؤكد بعض الخبراء بقوة أن القدرات الانفعالية والاجتماعية لا تقل أهمية عن القدرات الأكاديمية والعقلية في تحديد نجاح الشخص في حياته الراشدة. ولسوء الحظ، فإن كثيراً من الآباء والمعلمين يقللون من أهمية الانفعالات ويعدونها مجرد منغصات في طريق ما يرون أنه الهدف الأسمى - وهو تطوير القدرات الكامنة والإنجاز الأكاديمي المتميز لدى الطفل. لذا فإنهم يميلون أحياناً إلى تجاهل مشاعر أطفالهم أو تجنبها، أو محاولة التحكم فيها، أو حتى التقليل من شأنها. وعندما يحدث ذلك، فإن الرسالة التي تصل إلى الطفل تفيد أن مشاعره ليست مهمة وأنه غير مهم أو أنه لا قيمة له. إن الرسائل من هذا النوع تؤثر بوضوح في التواصل وبناء العلاقات.

المشاعر لا تكون صحيحة أو خطأ

تخيل أنك كلما انزعجت من أمر ما، نظر إليك شخص أضخم وأطول منك باحتقار وقال لك بنبرة غاضبة: «ليس لك الحق في هذا الشعور!»، أو «أنت مخطئ في غضبك لهذا الأمر!». إن المشاعر مسألة شخصية وتبدو حقيقية وواقعية بالنسبة للشخص الذي يشعر بها. وعندما تحكم على شعور طفل بأنه «خطأ» فكأنما تقول إن حركة عضلية لا إرادية هي حركة صحيحة أو خطأ. ونادراً ما يستطيع الناس التحكم في المشاعر الفورية التي ترتبط بموقف أو حادثة معينة. لكنهم بالمقابل يمكن أن يتحكموا في السلوكيات التي يستعملونها للتعبير عن مشاعرهم، ويمكن للوالدين أن يساعدوا الأطفال في التعبير عن مشاعرهم ونقلها للآخرين بطرائق يقبلها المجتمع.

يحتاج الأطفال أحياناً إلى تعلم الوعي بمشاعرهم الحقيقية - بدلاً من الاهتمام بما يفترض أن يشعروا به أو ما يتوقع الآخرون منهم أن يشعروا به. كما أن الأطفال يحتاجون، طبعاً، إلى فهم كيفية تأثير المشاعر في تواصلهم مع الآخرين.

تسمية المشاعر

لا يولد الأطفال وهم يعرفون الكلمات التي تصف مشاعرهم، ولا شك في أن تعلم أسماء مشاعرك تمثل جزءاً من معرفتك لنفسك لتستطيع التواصل جيداً مع الآخرين. وقد يبدو ذلك بسيطاً، لكن الأطفال الصغار لا يملكون ذخيرة واسعة من المفردات التي تصف المشاعر ويستعملون عادة كلمات أساسية مثل «حزين»، «مجنون»، «غضبان» و«سعيد». وكلما تقدموا في العمر، يضيف الوالدان إلى مفردات مشاعرهم، باستعمال كلمات جديدة مثل «محبط»، «منزعج»، «فخور» و«خجل».

يمكن أن يساعد الراشدون بعبارات تعكس مشاعر الأطفال، كأن يقولوا مثلاً «أرى أنك بدأت تشعر بالإحباط من مشروعك»، «أو» ما شاء الله، يبدو أنك مستمتع حقاً! وهناك دائماً كلمات جديدة في الكتب التي تقرأها لطفلك. إن إدراك المشاعر وتسميتها هي الخطوة الأولى نحو إدارتها والتعامل معها.

كيف يمكن أن يتعلم الأطفال إدراك المشاعر ومدى تأثيرها في تواصلهم وعلاقاتهم مع الآخرين؟ إلى جانب محادثتنا معهم ونمذجتنا للمشاعر، فإنه يمكننا استخدام الكتب لكي تساعد الأطفال على التحدث عن المشاعر، وإدراك أن هذه المشاعر القوية هي أمر طبيعي. ومن الأمثلة الجيدة على هذه الكتب: لا تطعم الوحش أيام الثلاثاء *Don't Feed the Monster on Tusedays* والإسكندر واليوم المزعج، والمخيف وغير الجيد والسيء جداً *Alexander and the Terrible, Horrible, No Good, Very Bad Day* إلى جانب كثير من الكتب الملخصة والمفهرسة حسب موضوعاتها في قائمة ببلغرافيا: بعض أفضل أصدقائي هي الكتب ^v *Some of my Best Friends Are Books*.

وربما يكون من المفيد لك بوصفك أباً أن تعرف أن المشاعر تتولد عادة من قضايا ومساائل خفية. فالمشاعر التي تراها على السطح قد تعكس في حقيقتها اهتمامات ومخاوف عميقة عند الطفل أو

الشخص الكبير على حد سواء. وتنشأ المشاعر عادة نتيجة لمعتقدات وقضايا خفية، ومن الأفضل التركيز دائماً على المشكلات الخفية (أي معتقدات الطفل) أكثر من التركيز على الموضوعات الطافية على السطح في الوضع الراهن. ويوضح الجدول (5) بعض التلميحات المفيدة حول المعتقدات التي تتولد منها المشاعر.

جدول 5: المعتقدات الخفية وآثارها الانفعالية^٥

آثاره (المشاعر الصريحة)	المعتقد الضمني
الغضب	لقد اغتصبت حقوقي
الذنب	لقد اغتصبت حق شخص آخر
القلق، الخوف	هناك تهديد يلوح في المستقبل
الإحراج	لقد قورنت سلبياً بالآخرين

احذر أن تطلق على مشاعر الطفل تسمية غير صحيحة وتخبره بما « يشعر فعلاً»، وكأنك تعرف ما يشعر به أفضل مما يعرفه هو نفسه. فعندما يقول والدٌ لطفله: «أنت لست غاضباً من أخيك حقاً، فأنت تعرف أنك تحبه، وكل ما في الأمر أنك مرهق قليلاً الآن»، فإن الطفل سيشعر بالارتباك. فالوالد في هذا الموقف ينفي عن طفله الانفعال القوي الذي يشعر به في تلك اللحظة. ثم إن هذا الوالد يضع بعض الافتراضات حول مشاعر الطفل وسلوكه - وهي افتراضات قد لا تكون صحيحة من وجهة نظر الطفل. وأخيراً، فإن الوالد يوحي لهذا الطفل أن من الخطأ أن يحس بهذه المشاعر، وهذا يقلل من ثقة الطفل في قدرته على تسمية مشاعره الخاصة وتقبلها وإدارتها.

الأطفال الموهوبون لا يمتلكون قدرات عقلية متطورة فحسب، وإنما كذلك انفعالات قوية استثنائية. صحيح أن مشاعرهم تشبه مشاعر الآخرين، ولكنهم يعبرون عنها بصورة أقوى من غيرهم. وهذا يزيد من أهمية تقمص المشاعر والتأكد منها لدى هؤلاء الموهوبين، كما يزيد من ضرورة أن يتعلم هؤلاء الأطفال إدارة سلوكهم المرتبط بتلك المشاعر.

مشكلات التواصل عند الأطفال الموهوبين

تكون سلوكيات الأطفال الموهوبين وطرائق تفكيرهم، منذ أوقات مبكرة من أعمارهم، مختلفة عما يعدّ سلوكاً وتفكيراً عاديين. فالآباء على الأغلب، يصفون طفلهم الموهوب بأنه «صعب» أو «شديد التحدي» أو «قوي الإرادة». وعندما يطلب إليهم أن يوضحوا الأمر أكثر، فإنهم يستعملون صفات أخرى، مثل: «عنيد»، «كثير الجدل»، «خيالي»، «يعيش في عالمه الخاص»، «يجب إصدار الأحكام»، «يميل إلى الكمال» و«يقسو على نفسه» أو «يغرّد خارج السرب». وعلى حين تعدّ خصائص الأطفال الموهوبين المعروفة والنزعة إلى حب الاستطلاع، والتركيز، والحساسية، والمثالية والمهارات المتطورة من جوانب قوتهم الواضحة، إلا أن هذه الجوانب القوية ذاتها تجعل هؤلاء الأطفال مختلفين عن

غيرهم، وهذا الاختلاف عن الآخرين يؤثر حتمًا في طريقة التفاعل معهم. كما أن بعض الخصائص مثل حب السيطرة والكمال يمكن أن تعرقل التوصل مع الآخرين وبناء الصداقات معهم. وقد يرى بعض الناس أن لغة الأطفال الموهوبين وسلوكياتهم «غريبة». وعندما تكون «الغرابة» هي العدسة التي نرى منها الطفل الموهوب، تزيد احتمالات وصف هذا الطفل بعبارة سلبية.

كتب أحد المراهقين الموهوبين يقول «أسوأ ما في الإبداع هو الوحدة... إنني أحاول فهم قضايا صعبة مثل الدين والأخلاق والفلسفة والسياسة، وليس هناك من أستطيع التحدث معه حول هذه القضايا، وعليّ أن أتعامل مع هذه القضايا كافة وحدي». وعندما يفهم الوالدان والمعلمون وغيرهم سمات الأطفال الموهوبين وسلوكياتهم المشتركة، فإنهم سيكونون أكثر قدرة ورغبة في تقبل هؤلاء الأطفال والتواصل معهم.

وبما أن مشاعر الأطفال الموهوبين حادة وحساسة، فإن الآباء يجدون أن عليهم أن يكونوا لطفاء عند مناقشتها. فبعض الأطفال الموهوبين يشاركون الآخرين في مشاعرهم بكل يسر وسهولة، على حين يكون آخرون، لاسيما أولئك الذي يفضلون عالم المنطق والنظام، غير مرتاحين عند الحديث عن مشاعرهم، فيحاولون أن يوجهوا المحادثات نحو الحقائق أو الموضوعات العقلية التي تبدو حسيّة ومريحة لهم. وقد يتجنبون بعض الانفعالات والآراء لأن مشاعرهم نحوها تبدو غير منطقية، أو غير دقيقة أو محفوفة بالخطر، أو مثيرة للخوف بسبب شدتها. وربما كان علينا التأكيد لهؤلاء الأطفال أن المشاعر لا تحتاج بالضرورة إلى أن تكون منطقية أو منتظمة؛ بل إنها في أغلب الأحيان تكون غير منطقية، فهذه هي طبيعة الانفعالات.

معاقة الطفل لأنه موهوب

يعاقب الكبار أطفالهم أحيانًا، دون قصد منهم، بسبب الخصائص ذاتها التي تشكل جزءًا مهمًا من الموهبة عند الأطفال. وقد يربطون موهبة الطفل بتعليق ناقد كأن يقولوا مثلاً: «إذا كنت ذكيًا إلى هذا الحد الكبير، فلماذا لا تتذكر أن تنجز واجباتك؟» هذه التعليقات تخبر الطفل أنه سيكون مقبولًا ويتلقى نقدًا أقل لو أنه كان أقل موهبة مما هو الآن. والمعلم الذي يقول للطالب الموهوب متهمًا «حسنًا! وأخيرًا سألتك سؤالاً لم تستطع الإجابة عنه»، ينقل إلى هذا الطالب رسالة مفادها أنه سيكون أكثر قبولًا وشعبية لو أن معرفته كانت أقل وأن ذكائه كان متوسطًا. وعندما يقول أحد الوالدين: «لماذا يجب أن تكون دائمًا حساسًا جدًا؟» يشعر الطفل بأن والده قد أساء فهمه، وانتقد مشاعره الحقيقية، فيتخوف من إظهار هذه المشاعر في المستقبل. ومما يؤسف له أن يكون واقع الحال أنه كلما زاد ذكاء الطفل - وابتعد عن الوسطية والاعتدال - كان أكثر عرضة للوقوع ضحية لهذه الانتقادات.

وعندما يحاول الراشدون المهتمون أن يربوا هؤلاء الأطفال ويثيروا دافعيتهم، فإنهم يتواصلون معهم بطرق لا يمكن أن يلجئوا إليها مع صديق حميم أو أي شخص راشد آخر يهتمون به. فلا يقولون لأزواجهم مثلاً «عزيزتي، إنك لم تخططي جيدًا لتلك الحفلة»، أو «أنا متأكد أنك ستتقنين هذا العمل في المرة القادمة؛ فكل ما تحتاجين إليه هو الانتباه لبعض التفاصيل». ولا نقول لصديق لنا أو زميل في

العمل مثلاً: ”لماذا تعطي التسوّق كل هذه الأهمية. أليس لديك أمور أفضل تشغل بها وقتك؟“. ولكن الأطفال الموهوبين يسمعون عبارات مثل ”لا أصدق أنك تقضي هذا الوقت كله في ألعاب الفيديو“، أو ”فيم كنت تفكر؟ أعتقد أنك لم تكن تفكر أبداً!“

إن مثل هذه الملاحظات ليست قاسية وغير دقيقة وغير عادلة فحسب، بل تعكس كذلك نقصاً في فهمنا للطفل الموهوب وتعيق تواصلنا معه. لكن الوالدين والمعلمين قد يستخدمون هذه العبارات أحياناً نظراً لحيرتهم الحقيقية حول سبب عدم قدرة هؤلاء الأطفال الأذكياء على تذكّر مثل هذه المهام أو المسؤوليات البسيطة. أو ربما يحاول الشخص الراشد أن يبيّن للطفل الموهوب أنه ”لا يختلف عن غيره من الأطفال“. لكن هذا الطفل مختلف حقاً عن غيره.

يستجيب الناس المحيطون بالطفل الموهوب في غالب الأحيان استجابة سلبية لاختلاف هذا الطفل عن غيره دون أن يأخذوا في الحسبان إمكانية تأثير ذلك فيه. وقد يكون رد فعل الطفل الموهوب على ذلك الاحتفاظ بمشاعره وآرائه لنفسه. وقد يتوصل إلى أنه لا يسمح له بالتفكير أو الشعور المختلف؛ بل ربما يستنتج أن هناك خطأ جوهرياً ما في شخصيته بوصفه إنساناً.

وعندما يحصل الأطفال الموهوبون على ردود أفعال قوية من الآخرين، فإنهم يغلقون قنوات الاتصال الصادقة والمنفتحة الطبيعية تماماً لديهم، ويتبنون بدلاً منها قنوات تمويهية أو يبذلون جهودهم ليكونوا «عاديين» - أي يشبهون الأطفال الآخرين. إن حساسيتهم تجعل التعليقات القاسية مؤذية تماماً لهم. فالطفل الذي يتعرض دوماً إلى تعليقات مدمرة قد يصبح عديم الثقة بالعلاقات كافة مع الآخرين، ويطور أسلوباً دفاعياً منيعاً، حيث ”يشيد جداراً“ بينه وبين الآخرين ولا يشاركونهم في مشاعره وأحاسيسه.

فإذا كان طفلك يحيط نفسه بجدار دفاعي، فيتعين عليك أولاً معرفة سبب هذا الموقف الدفاعي. فالدفاعات توجد عادة لسبب ما - ويكون ذلك السبب صادقاً من وجهة نظر الشخص نفسه على الأقل. وكلما حاول الوالدان كسر هذه الدفاعات، أصبح الطفل أكثر ميلاً إلى إعادة بنائها من جديد. وعندما يشعر الطفل بأن المناخ أصبح آمناً، فإنه سيقرر عدم الحاجة إلى وجود هذه الجدران الدفاعية العالية.

وبما أن الأطفال الموهوبين يولدون قدرًا من التحدي والإحباط للوالدين، فإن معظم الآباء سوف يستعملون، من وقت إلى آخر، عبارات هدامة. فقد تغضب من طفلك الموهوب وتقول له شيئاً تتمنى لاحقاً لو أنك تستطيع التراجع عنه. وعندما يحدث ذلك، عليك أن تسارع إلى إصلاح الأمر من خلال اعتذار حقيقي وفوري تبين فيه للطفل سبب إحباطك وغضبك. إن من حقائق الحياة أن تتخلل العلاقات الإنسانية أوقات عصيبة، وإن من المهم أن نتعلم طرق تجاوز هذه الأوقات. فالاعتذار لطفلك يمثل قدوة في كيفية التعامل مع الحفاظ على العلاقات، ويعطي الطفل مثلاً على كيفية إصلاح هذه العلاقات عندما تشوبها الشوائب. كما أن ذلك ينقل إلى طفلك أنك تحترم مشاعره وتتقبلها مما يعيد فتح قنوات التواصل معه.

وعلى الرغم من أن الأطفال الموهوبين يحافظون عموماً على علاقاتهم، إلا أن تعرضهم لانتقادات هدامة متكررة، كالتي ذكرت آنفاً، يحتتمل أن ”تهوي بهم إلى القاع“، وتعطل عمليات التواصل وبناء

العلاقات مع الآخرين. وفي مثل هذه الحالات، يكون للمزيد من المدح، والتشجيع والاعتذار، حيثما لزم الأمر، دور مهم في تقديم المساعدة للطفل وتحسين تواصله مع الآخرين.

عقبات أخرى تعيق التوصل

ينخرط كثير من الآباء دون قصد في سلوكات أخرى يمكن أن تمثل عوائق للتواصل مع الأطفال الموهوبين؛ لذا يتعين عليك تجنب:

- اعتبارك السلطة الوحيدة أو المدير المباشر الذي يخبر الطفل بما يجب عليه فعله بالضبط.
- إصدار الأوامر باستمرار لكي تحافظ على كل الأمور تحت السيطرة.
- استعمال التعاميم المجاوزة للحد، مثل "أنت لا تفكر إلا في نفسك"، أو "إنك لا تكمل ما تبدأ بعمله أبداً". لأن مثل هذه العبارات تضر بتقدير الذات والعلاقات مع الآخرين.
- استعمال عبارات تهكمية لانتقاد الطفل، مثل "إذن أنت تعتقد أن هذه هي نهاية العالم!" فالطفل الحساس قد لا يفهم التهكم ويأخذ بحرفية الكلمات. وإذا استعملت التهكم لمجرد إغاطة الطفل، فكن على يقين أنه يعرف أنك لا تعني ما تقوله حرفياً.
- تحويل الحديث لحماية الطفل مثل قولك: "دعنا ننس الأمر. دعنا نخرج ونمارس رمي الكرة معاً؛ لأن مثل هذه العبارات تقلل من أهمية الموقف وتنتقص من مشاعر الطفل، وقد تحمل في طياتها رسالة إلى الطفل بأنه مخطئ في أن يشعر ذلك الشعور كله.
- القول للطفل: "إنني أعرف تماماً كيف تشعر". فأنت لا تعرف حقاً ما يدور في عقل الطفل. وقل له بدلاً من ذلك: إنك تريد أن تتعرف إلى وجهة نظره وتفهمها بالاستماع إليه؛ ثم بين له مدى فهمك لمشاعره.
- مقاطعة الطفل وهو يتحدث. بل أنصت له باهتمام؛ واطرح عليه أسئلة بهدف التوضيح بعد الانتهاء من كلامه. إننا لا نستطيع أن نحقق فهمًا تاماً إلا بالإنصات الحقيقي.
- توجيه أسئلة للطفل، مثل: "لماذا تشعر بهذه الطريقة؟"، أو "لماذا فعلت ذلك؟ لأن الأطفال يجدون صعوبة في تحليل المشاعر، وتزداد الصعوبة عندما يغضبون أو يؤذون.
- الرفض السريع لرغبة الطفل بدلاً من أن تقول له متسرعاً: "لا، ليس لدينا أي نوع من الزبد اليوم"، قدّمها له في الخيال، كأن تقول له: "أتمنى لو كان عندنا زبد. إذا ذكرتني بها عندما نذهب للتسوق المرة القادمة، فسوف أشتري لك منها الكثير".
- رفض مشاعر الطفل. بعد أن يلعب طفلك مع صديقه يعلن "لم أعد أحب رامي". فإذا جادلت الطفل قائلاً: "إنك طبعاً تحبه، فهو صديق حميم"، فإنك تكون قد أنكرت على طفلك مشاعره، مما يؤدي إما إلى وقف النقاش أو البدء بجدل عنيف معه. لكن الاستجابات التي تشجع التواصل قد تكون أكثر فائدة، كأن تقول له: "حسنًا، يبدو أنك لم تستمتع كثيرًا مع صديقك اليوم".

التواصل خط الحياة

يمكنك أن ترى من الأمثلة السابقة السبب الذي يجعل التواصل مهماً جداً لنفسية الأطفال الموهوبين، ولماذا يجب أن يكون منزل الطفل ملائماً يُحترم فيه التواصل الصريح والصادق، ويكون ذلك المناخ هو الوضع الطبيعي، لأن هناك أماكن محدودة في حياة الطفل توفر له مثل هذا الملاذ الآمن للتواصل مع الناس.

إن التواصل مع الطفل يمثل حرفياً خط حياته. فإذا توفر للطفل راشد واحد يتواصل معه بحرية، ويتقبله ويقدره، فإنه يستطيع أن يتحمل قدرًا كبيراً من الإحباط الذي قد يواجهه في العالم الكبير الذي يعيش فيه. وأنت بوصفك والدًا، شخص على درجة كبيرة من الأهمية- فأنت من يوفر للطفل مكانًا للقبول والأمان الانفعالي. وإذا كنت لا تستطيع أن تكون هذا الشخص، لأي سبب من الأسباب، فإنه يتعين عليك أن تبحث له عن بديل آخر - معلم أو جار أو موجه أو صديق - يؤكد للطفل أنه شخص عادي وأن كل ما يشعر به أو يعتقد به معقول ومقدر.

الأساليب والاستراتيجيات

فيما يأتي بعض المبادئ التي توجهك إلى توفير تواصل جيد وبناء علاقات صحيحة مع طفلك:

أنصت لي، إذا كنت ترغب/ين في التواصل: فعندما تنصت جيدًا لطفلك، فإنك تنقل له رسالة مفادها أن أفكاره ومشاعره وقيمه تستحق أن تسمع إليها. والإنصات هو أكثر عناصر التواصل أهمية. ففي معظم الأحيان لا يريد الأطفال منا سوى أن ننصت إليهم. ولا يحتاجون إلى تعليقاتنا أو آرائنا أو تقويمنا - وإنما يحتاجون فقط إلى فرصة لمشاركتهم في مشاعرهم. إن السماح بالمشاركة، دون أن تفعل شيئاً سوى الإنصات لهم، يخلق مناخًا للتفاعلات المستقبلية عندما يغامر أطفالك أكثر لدرجة أنهم حتى ربما يطلبون منك تزويدهم بتغذية راجعة. فقد تجد أن من المفيد أن تسأل الطفل: "هل تريد مني تعليقًا حول هذا الموضوع، أم تريد مني فقط أن أنصت لك؟" يعرف الطفل عندئذ أن لديك آراء، ولكنه سيعرف كذلك أنك ستحتفظ بها لنفسك إذا طلب منك ذلك. وهذا بلا شك يبني بينكما الثقة والاحترام المتبادلين. تذكر دائمًا أن الإنصات دون تقديم النصيحة أو الآراء يشكل أمرًا صعبًا لكثير من الوالدين، لأنهم كثيرًا ما يودون "المساعدة" من خلال مشاركة الأطفال في أفكارهم وخبراتهم. فالآباء في نهاية الأمر يكونون قد خبروا بعض الصعوبات التي يواجهها أطفالهم الآن، وهم يريدون أن "ينقذوا" أطفالهم أو "يحموهم" من الانزلاق في أي مواقف مؤلمة. وعندما تتذكر أن الطفل يحتاج إلى خبرة ذاتية لكي يتعلم كيف يحل مشكلاته بنفسه، فإنك قد تخفف من نصائحك وتقتصر على الإصغاء إليه فقط.

وإذا شعرت بأنه يجب عليك تقديم النصيحة، لأن الموقف قد يكون خطيرًا للغاية، فتذكر أن الطفل سوف يقبل نصيحتك وتعليقاتك عندما تشعره بأنك تفهم مشاعره وعواطفه. ومن العبارات البسيطة التي تؤكد للطفل أنك تحاول فهمه وتقدر مشاعره، عبارات مثل: «أستطيع أن أرى أنك غاضب وتعتقد أن الموقف غير عادل»، أو «أعتقد أنك تشعر بالانزعاج مما حدث معك في المدرسة».

تقبّل اي مشاعر الطفل حتى عندما لا تكون راضياً عنها: عندما تستمع لطفلك، تقبّل مشاعره وأفكاره. وهذا لا يعني بالضرورة أن عليك الموافقة عليها؛ وتذكّر أن المشاعر تكون فقط للشخص الذي يحس بها، ولكل شخص الحق في مشاعره. والمشاعر لا تكون «صحيحة» أو «خطأ». إنها مجرد تعبير عن الحالة العقلية للشخص في وقت معيّن من حياته. واحذر أن تقول للطفل عبارات، مثل: «لا أدري لماذا أنت حزين إلى هذا الحد! فهناك أشياء يجدر أن تحمد الله عليها!». فقد يبدأ الطفل بالتفكير في أنه ليس على ما يرام إذا سمع شيئاً من هذه الرسائل التي تقلل من شأن مشاعره.

يتعلم الأطفال، في بعض العائلات، أن المشاعر مناطق خطيرة، وأن التحدث عنها قد يؤدي إلى صراخ وشجار غير مريحين. فيتعلم الأطفال في هذه العائلات أن من الأفضل عدم التعبير عن مشاعرهم - وأن الفوضى الانفعالية الناجمة عن ذلك لا تستحق هذا العناء- فيتعلمون أن يحتفظوا بمشاعرهم. وعندما تُحفظ المشاعر في داخل الطفل ولا تنتقل إلى الآخرين بحرية تامة، تزداد أخطار انفجار المشكلات المتراكمة بصورة مفاجئة، مؤدّة أشكالاً من الأزمات النفسية. كما أن حفظ المشاعر في داخل الطفل يمكن أن يقود إلى تزايد القلق والتوتر أو حتى إلى بعض المشكلات الجسمية كالصداع أو آلام المعدة.

شجّع طفلك على التعبير عن مشاعره، وأن يقوم بذلك مراراً وتكراراً. وتقبّل مشاعره حتى عندما تختلف معها لكي تنقل إليه أن مشاعره وآراءه واتجاهاته كلها مهمة بالنسبة إليك. إن القدرة على التعبير عن المشاعر ونقلها إلى الآخرين مهارة سوف يحتاج طفلك إليها طوال حياته، وأفضل مكان يتعلم فيه الطفل هذه المهارات ويمارسها هو عائلته التي تشعره بالأمان.

وقّري جواً ينمي التواصل: لا يمكنك فرض التواصل على طفلك؛ فهذا يشبه ضرب قوقعة السلحفاة عندما تريد منها أن تخرج رأسها خارج القوقعة. لكنك يمكن أن تطور جواً يشجع طفلك على التواصل.

لكل عملية تواصل بعد انفعالي، فنبرة الصوت وشدته وطريقة الوقوف وإشارات اليدين كلها تؤثر في «المناخ» الانفعالي. وربما تريد أن تطلب إلى شخص متخصص تثق به أن يزودك بتغذية راجعة عن نبرة صوتك أو لغة جسمك وما تحملانه من المشاعر والانفعالات. فالحواسب المرفوعة إلى الأعلى، أو الابتسامة العريضة، أو لمسة الذراع، أو الربت على الظهر، كلها تنقل للطفل معلومات مهمة. وكثير من الناس لا يعرفون أن أصواتهم تبدو غاضبة أو ناقدة أو تتضمن أحكاماً معيّنة، أو أنهم غير مكترئين للآخرين. وربما يصابون بالرعب عندما يعرفون كيف يؤثرون في أطفالهم كل هذا التأثير. وقد تتغلغل النبرة السالبة في قلب الطفل الموهوب الحساس ولا يعود يسمع الكلمات الموجبة. إن إدراكك البعد الانفعالي في تواصلك مع طفلك وحسن إدارتك له يساعد على تشكيل جو إيجابي بينكما.

استعمل اي الإنصات التأملي: يُعدّ الإنصات التأملي reflective listening من الطرق الجيدة للسماح للطفل بأن يعرف أنك تتقبّل مشاعره. فليس عليك أن تقول أموراً كثيرة في أثناء الإنصات؛ وإنما يكفي أن تعيد صياغة ما قاله الطفل لكي يعكس المشاعر التي يبدو أنها تقف وراء كلماته. فعندما ترى، مثلاً، أن طفلك قد عاد من المدرسة منزعجاً، يمكنك أن تقول له:

«يبدو أنك منزعج من شيء حدث معك اليوم».

فيقول لك الطفل:

”لقد نعتني سلطان بأني لا أجد سوى المذاكرة بعد نزولنا من الحافلة مباشرة!“

”يا الله، يبدو أن ذلك جعلك تشعر بالاستياء“.

”نعم، لقد قال إن كل ما أتقنه هو قراءة الكتب واللعب بالمراقب (التللكوب).“

”يبدو أن ذلك جعلك تشعر بالغضب“.

”نعم! وأريد أن أضربه بقوة وربما أفعل ذلك غدًا في وقت الاستراحة“.

”إنك تفكر في التشاجر معه“.

”وماذا أستطيع أن أفعل غير ذلك؟ فأنا لا أحب أن يقول عني ذلك أمام أصدقائي“.

”يبدو أنك تفكر في طريقة للانتقام منه“

”أخشى أن يوقعني ذلك في مشكلات مع المدرسة“.

”ربما بدأت تفكر فيما إذا كان لديك بدائل أخرى“.

”نعم، أظن أنني سوف أتجاهله تمامًا وأنسى ما حدث؛ لكن ذلك ليس عدلاً“.

”لا يبدو ذلك عدلاً، أليس كذلك؟“

”لا، إنه لا يعرفني حق المعرفة“.

”هو لا يعرف أي نوع من الطلاب أنت“.

”نعم، فأنا أحب كرة البيسبول وأشياء أخرى مثله تمامًا“.

”إنه لا يعرف أنك تحب الأشياء التي يحبها هو“.

”نعم، لكنه سوف يكتشف ذلك يوماً ما“.

لاحظ أن الوالد، في هذا المثال، لم يضيف كثيراً إلى ما قاله الطفل ولم يساهم في طرح أي معلومات جديدة، سوى تسمية بعض المشاعر أحياناً. فالوالد كان يعيد صياغة العبارة أو التعليق، وقد يطرحها بصورة سؤال. ليس مطلوباً منك الموافقة على ما يقوله الطفل، ولكن عليك أن تقبل حق الطفل في التعبير عن مشاعره دون أن تصدر عليها أحكاماً، من حيث كونها صحيحة أو غير صحيحة، أو جيدة أو سيئة. إن الإنصات التأملي يساعد الطفل على توضيح مشاعره، بالإضافة إلى نجاحه في التفكير بطرق يقرر استعمالها في التعامل مع هذه المشاعر حيث يتمكن لاحقاً من حل بعض المشكلات وحده دون أي مساعدة من أحد.

ولو أن الوالد، في المشهد السابق، قال لابنه: ”لماذا لا تحاول أن تتجاهل ”سلطان“ غدًا؟“ فإنه سوف يستنتج أن والده قد قفز فوراً إلى اقتراح الحل وكأن مشكلته يمكن أن تحل بكل سهولة، أو

أن عليه أن يستمع إلى والده بدلاً من استماع والده له. عندما تستعمل الإنصات التأملي فإنك تستمع إلى وجهة نظر الطفل وتساعد على حل مشكلته بنفسه. إن الإنصات التأملي صعب في بداية الأمر ويحتاج إلى ممارسة وتدريب، ولكنه يمكن أن يكون أداة قيمة لتنمية التواصل المستقبلي مع الطفل.

افهم/ي سبب صمت طفلك: يمكن أن يعكس الصمت شعوراً مهماً، كما يعرف كثير من الآباء المحبطين، ولذا فإن من الأهمية بمكان أن تفهم سبب صمت طفلك - المفاجئ. فهل يعود السبب إلى أنه غاضب وأنه قد انسحب من الموقف لكي يعاقبك؟ أم أن السبب هو محاولة الطفل السيطرة والتحكم من خلال رفضه مشاركتهم؟ أم أنها طريقة يحمي بها الطفل نفسه لأنه يخاف ألا تفهمه إذا أخبرك بحقيقة الأمر؟ أم أن ذلك بكل بساطة طريقته في الاستمتاع بخبرة مثيرة؟ فإذا استطعت أن تحدد الدافع وراء صمت طفلك، أمكنك تقديم مساعدة أفضل له. وقد يكون من المناسب أحياناً أن تسمح بحدوث فترات طويلة من الصمت، لأن ذلك يوحى إلى الطفل أنك تتقبله كما هو وتحترم خصوصيته.

خصّص/ي وقتاً معيناً لقضائه مع الطفل: يُعدُّ الوقت المخصص للطفل أحد أهم الأساليب التي يمكن أن يستعملها الوالدان لتشجيع طفلهما على التواصل، بغض النظر عن عمر ذلك الطفل. بل إن الأسلوب المهم الوحيد الذي ينمي علاقتك بطفلك هو قضاء بعض الوقت معه. وتشجع الكتب التي تتناول تنشئة الأطفال قضاء «وقت نوعي» مع الطفل، لكن ذلك الوقت النوعي بحاجة إلى تعديلات طفيفة حينما يتعلق الأمر بالطفل الموهوب. فأولاً، يجب على كل من الوالدين أن يخصص للطفل بضع دقائق من الانتباه التام غير المشوّش يومياً. وليس من الضروري أن يستمر هذا الوقت الخاص مدة طويلة - إذ يكفي أن يكون ثلاث، أو خمس، أو سبع دقائق - غير أنه يجب أن يكون يومياً. فخمسة أوقات من دقيقتين إلى خمس دقائق ستكون أكثر تأثيراً من وقت خاص واحد يستمر ساعة كاملة. إن الثبات على تخصيص هذا الوقت وعلى تكراره أهم من طول مدة استمراره. وإذا كان لك أكثر من طفل وخشيت أن يقطع بعضهم الوقت المخصّص للآخرين، فحاول استعمال منبه لتوزيع الوقت عليهم. وإذا أصّر بعض الأطفال على مقاومة وقت أشقائهم، فأضف دقيقة (أو أكثر) إلى الوقت الذي حدثت فيه المقاطعة.

وجّه انتباهك التام، خلال فترة الوقت الخاص، لطفل واحد، ما لم يحدث أمر طارئ في العائلة. فإذا سُمع جرس الهاتف، فتجاهله أو قل للشخص المتّصل: «هذا وقت مخصّص لطفلي الآن؛ وسوف أتصل بك بعد ١٠ دقائق من الآن.» فعندما ترفض الإجابة على مكالمات هاتفية لكي تقضي الوقت مع طفلك، فإنه سيعرف أن علاقتك به تحتل مكانة خاصة في سلّم أولوياتك.

يمكنك أن تستعمل الوقت الخاص لتلبية حاجة ما يريدها الطفل، لكن حذارٍ أن يكون ذلك على صورة نشاط تنافسي. فالأطفال الموهوبون يبحثون أحياناً عن التنافس، لكن عندما يوجد التنافس يكون هناك رابع وخاسر ومشاعر مؤلمة أحياناً. وقد يكون التنافس مفيداً في مناسبات أخرى، لكنك تودّ، خلال الوقت الخاص، أن توصل رسالة إلى الطفل أنه مهم في الأحوال كافة، وليس في حال فوزه أو إنجازه فقط. فالهدف من الوقت الخاص هو إشعار الطفل بأنه مهم لذاته، وأن وجودك معه في الوقت الخاص مهم لك أنت. كما أنك تمثل، خلال الوقت الخاص، نموذجاً للعلاقات المستقبلية التي سوف يحظى بها الطفل. وسوف يتعلم طفلك أن العلاقات تستغرق وقتاً وانتهاً كبيرين؛ وأن الإهمال

لا يحافظ على تلك العلاقات.

ويمكن أن تفكر في بعض التعديلات الإبداعية في حالة الوقت الخاص الذي تقضيه مع الأطفال الأكبر سنًا. ويمكن للوالدين أن يتناوبا في إرسال الطفل إلى المدرسة لقضاء هذا الوقت الخاص معه، أو ربما يتناولان معه وجبة الإفطار في أحد المطاعم قبل موعد المدرسة. ويمكن أن يكون الوقت الخاص بمشاركة الطفل في نزهة على الأقدام أو بالدراجة الهوائية. وقد يقرر الوالدان أن يأخذا طفلاً واحداً ويخرجا معه - إلى النادي، أو إلى المكتبة العامة، أو المتحف، أو في رحلة لصيد السمك، أو التخييم، أو المشي، أو التسوق، أو حتى لشراء حاجات بسيطة. الأمر المهم هو أنك تخصص لطفلك جزءاً من الوقت تعطيه فيه جُلَّ انتباهك وحده دون أن يشاركه فيه أحد. إن وجودك مع طفلك يوصل له هذه الرسالة. وإذا كان طفلك كبيراً نسبياً، فإنك قد تودّ اصطحابه معك في رحلة عمل، حيث يزور مواقع معينة في أثناء "وقت فراغك"، أو يمكنك أن تطيل فترة الرحلة لتحقيق هذا الغرض. إن هذه الأوقات الخاصة المتنوعة سوف تولّد لدى طفلك ذكريات سارة لا تفارقه طوال حياته.

أما بالنسبة للأطفال الصغار، فإن الوقت الخاص قد يكون قبيل النوم أو مباشرة بعد وصولك من العمل. ويحب بعض الأطفال أن يكون وقتهم الخاص في أماكن معينة، كأن يجلسوا على سريرهم ومعهم كل حيواناتهم المكسّسة، أو في زاوية من زوايا غرفة العائلة، أو في مقعد والدهم المريح. وقد يرتبط المكان أحياناً بمشاعر الدعم والرعاية. لكن تذكر أن ما تفعله وفي أي مكان تفعله هو أقل أهمية من أنك تفعل شيئاً ما لطفلك.

قد يقول الطفل الصغير «لست مهتمّاً في الوقت الخاص الآن». فإذا حدث ذلك يمكن للوالد أن يقول له: «هل تفضّل وقتاً آخر في وقت متأخر من هذا اليوم؟، وإذا لم يكن لديك وقت آخر، فإني سأكون موجوداً في الدقائق الخمس (أو الدقائق السبع أو العشر) القادمة فيما لو غيرت رأيك؟»

وقرأي لطفلك «يوماً غير عادي» كل أسبوع حيث يكون ذلك اليوم هو العطلة الأسبوعية: فيجتمع أفراد العائلة يوماً واحداً كل أسبوع - أو ربما يوماً كل شهر، وليكن ذلك يوم الجمعة مثلاً- ويتناوب أفراد العائلة التخطيط لأحداث ذلك اليوم، أو جزء منه. ويحدّد الوالدان، بطبيعة الحال، المعالم العامة لذلك اليوم على أن تشمل الحدود المالية والأطر الزمنية المسموح بها. ويجب أن يشارك أفراد العائلة كلهم في الأحداث التي خطط لها المسؤول عن أنشطة ذلك اليوم، ويوافقوا على تلك الأحداث ويستمتعوا بها. وهذا النشاط يمكّن الطفل الموهوب من التحكم في بيئته ويوفر له صوتاً مسموعاً في أحداث عائلته. هذه الأيام غير العادية يمكن أن تساعد الطفل على تطوير علاقات الاحترام المتبادل مع أفراد عائلته.

يستمتع الأطفال عادة بوجود مثل هذه الفرص. وتوفر هذه الإستراتيجية للأطفال الموهوبين فرصاً للتعامل الصحيح مع ميولهم نحو الكمال؛ لأن التخطيط يكون مفصلاً في معظم الأحيان. ويصمّم بعض الأطفال الموهوبين مسارات لآيامهم، بما في ذلك تعليمات وأوقات خاصة بالأنشطة المتنوعة التي يمارسونها خلال اليوم. ويطوّر الأطفال مهارات التخطيط واتخاذ القرارات المناسبة عندما يعلمون،

مثلاً، أن العائلة لن تقوم برحلة طولها ٢٠٠ كلم إذا كان الإطار الزمني المحدد لها ثلاث ساعات، أو أنهم لا يستطيعون الذهاب إلى مدينة الرياض لمشاهدة معرض للتمور. كما يتعلم الطفل أن يأخذ في الحسبان مشاعر أعضاء أسرته واهتماماتهم للتأثير في قرارات الآخرين في الأيام الأخرى غير العادية. فهذه الأيام غير العادية تزود العائلة بوقت عائلي مميز، وفرص للتواصل، واحترام لأفكار كل فرد من أفراد العائلة واهتماماته.

قَوْمِ/ي المستويات الوجدانية لطفلك: ١٠ يتردد كثير من الأطفال الموهوبين قبل الحديث عن مشاعرهم لاسيما إذا لم يكونوا قد تعودوا على ذلك. ويمكنك، في هذه الحالات، أن تجرب طريقة مختصرة تنقل فيها مستوى من السعادة العامة لا يحتاج فيه الطفل إلى الكشف عن كثير من أموره - وهذا نوع من "قراءة حرارة الانفعال". فيمكن مثلاً أن تسأل الطفل أن يحدد على مقياس من ١ إلى ١٠، حرارة انفعاله لهذا اليوم، على أن تمثل الدرجة ١٠ قمة السعادة والفرح. فقد يقول الطفل إن حرارة انفعاله ٨ أو ٣، ويتوقف؛ ولكنك مع ذلك سوف تكون فكرة بسيطة عما يشعر به. وإذا لم يتابع الوالد هذا التواصل أكثر من ذلك، فإن الطفل يسأل "ألا تريد أن تعرف لماذا أنا عند الدرجة ٣؟" وهذا بالطبع يفتح باب التواصل أكثر من ذي قبل.

شارك/ي طفلك في مشاعره: التواصل دائماً شارع ذو اتجاهين. لذا يجب أن تكون نموذجاً لطفلك وتعبّر دائماً عن مشاعرك أنت بوضوح تام في مواقف متنوعة - تخبره فيما إذا كنت راضياً أم محبطاً، فخوراً به أم خاب أملك فيه. وقد تشعر أحياناً بأنك تودّ مشاركة طفلك في حرارة انفعالاتك. وقد يظن بعض الأطفال أن الراشدين لا مشاعر لهم، وهذا أمر محير حقاً.

تمرّن/ي على التعبير عن انفعالاتك بطرق صحيحة، ثم حدّد هذه الانفعالات حتى يتمكن طفلك من النظر إلى انفعالات شخص آخر بموضوعية. فعندما تكون منزعجاً، يمكنك أن تقول مثلاً: "إنني أشعر الآن بالانزعاج والغضب بسبب مشكلة حدثت معي في العمل". وعندما تتحدث مع أطفالك حول مشاعرك الخاصة، فإنك تنقل إليهم رسالة تفيد أن هذه المشاعر تخصك أنت، وأنها تكون أحياناً معقدة، وأنها تشكل جزءاً مهماً من حياتك.

استعمل/ي العبارات التي تبدأ بكلمة «أنا». فقولك للطفل: "إنني أشعر بالدهشة وخيبة الأمل عندما لا تنصت إلى شخص راشد يتحدث معك"، سيكون أبلغ وأشدّ أثراً من قولك: «لقد كنت وقحاً وغير مؤدّب مع عمك في ذلك الموقف». فالعبارة الأخيرة تتهم الطفل وتضعه في زاوية الدفاع عن نفسه. أما العبارة الأولى، التي بدأت بكلمة إنني، فقد ركزت على كيفية تأثرك أنت بالسلوك؛ لأنك أنت الشخص الذي كان يراقب ذلك السلوك. وقد أخبرت الطفل دون أن توجه له اللوم "أنا شعرت بالحزن وخيبة الأمل عندما...."، وفتحت بذلك المجال أمام الطفل كي يستجيب لك ويقول: «أنا آسف»، أو «متأسف لأنني لم أنصت».

يستطيع الطفل أن يحفظ ماء وجهه بسهولة عندما توجه إليه العبارات التي تبدأ بكلمة أنا. وحفظ ماء الوجه مهم جداً للأطفال الموهوبين، الذين يميلون أصلاً إلى أن يشددوا على أنفسهم. هذا النوع من العبارات يساعد الطفل على إدراك أثر سلوكه في الآخرين^{١١}.

ويمكنك، بالأسلوب ذاته، أن تستعمل العبارات التي تبدأ بكلمة «أنا» للتعرف إلى إنجازات الطفل الإيجابية بالتعبير عن مشاعرك أنت وتفسيراتك لمشاعر الطفل بدلاً من تقويم الطفل نفسه. فقد تقول له مثلاً: «أنا أشعر بالفخر والسعادة عندما أراك وأنت تتقن مشروعاً صعباً، وأعتقد أنك سوف تشعر بالمثل حيال عملك»، بدلاً من أن تقول له: «إنك تتقن عددًا كبيراً من الأشياء!» العبارة الأخيرة تضع الطفل أمام توقعات عالية، وتفرض عليه ضغوطاً تضطره إلى الاستمرار في إتقان أمور عديدة، أو تفيد بأن الطفل قد حصل على احترام وتقدير لمجرد أنه كان ذكياً ومتقناً لعدد كبير من الأمور. وتكمن الخطورة هنا في أن الطفل سوف يعتقد أنه لا يحصل على التقدير والاحترام إلا إذا حقق إنجازات كبيرة، بدلاً من الحصول على الاحترام لمجرد أنه إنسان من البشر.

افصل/ي بين السلوك والطفل: تذكّر في أثناء التواصل أن تمدح أو تدم السلوك وليس الطفل. فعبارة «إنني معجب بإكمالك مشروع العلوم في الوقت المحدد» أكثر تحديداً، وعليه تحمل معنى أوضح من عبارة «إن لديك موهبة حقيقية في عمل الأمور». ويمكنك بالطريقة ذاتها، إذا لم تكن راضياً عن سلوك الطفل، أن توضح عدم رضاك دون أن تنتقد الطفل نفسه. فبدلاً من أن تقول: «يبدو أنك لن تستطيع تذكّر القواعد أبداً»، يمكنك أن تقول بكل بساطة: «إن هذا السلوك غير مسموح به هنا.»

وهذا أمر مهم لأنه يفصل السلوك عن الطفل، والتعليقات الموجهة نحو السلوك مباشرة تكون في العادة أكثر دقة من تلك التي توجه إلى الشخص. فالتعليقات الإيجابية والسلبية تكون في العادة أكثر فاعلية عندما توجه إلى السلوك. ولا شك في أن تغيير التعليقات لكي تركز على السلوك بدلاً من الشخص يحتاج إلى تدريب، لكن النتيجة ستكون تواصلًا أفضل مع الطفل.

تذكّر/ي ماضيك الشخصي: يمكنك أحياناً أن تساعد على توفير جو إيجابي من التواصل مع طفلك عندما تتحدث عن مواقف عشتها عندما كنت طفلاً - أو ربما تعيشها الآن - وما يتصل بها من مشاعر وأحاسيس^{١٢}. ولا تستعمل عبارات تقليدية مثل: «عندما كنت في سنك، كنت أمشي خمسة أميال لأصعد التلّة المجاورة، ثم أهبط من فوقها وأنا أحمل ٢٥ كيلوجراماً من الكتب المدرسية». ولا تكشف لطفلك عن مشاعرك كلها دون أي اعتبار لما قد تتركه من أثر في نفسه. وما عليك إلا أن تشارك طفلك في بعض عواطفك المرتبطة بخبراتك السابقة، كأن تقول له مثلاً: «أتذكّر أنني غضبت ذات مرة غضباً شديداً من أحد المتنمرين في المدرسة»، أو «لقد صادفت مشكلة كهذه مع أحد الباعة أو السائقين ... إلخ ذات مرة». فالأطفال الموهوبون يستجيبون إيجابياً لمثل هذه المشاركات التي يعترف بها الراشدون بأن لهم مشاعر رقيقة كالشعور بالأذى أو الخوف أو الإحراج.

علم/ي طفلك بعض المهارات الاجتماعية: قد لا يكون طفلك واعياً بتأثير أسلوبه في الآخرين عند التواصل معهم. فإذا كان مثلاً يحب السيطرة على الآخرين أو يصدر أحكاماً عليهم، فإنه قد يستفيد من بعض مواقف لعب الأدوار التخيلية مكتشفاً كيف تبدو الأصوات المختلفة أو كيف يشعر بها الآخرون. وقد يحتاج الأطفال الموهوبون أحياناً إلى من يعلمهم كيف يتواصلون بصرياً مع الآخرين ويتحدثون معهم بطريقة ودية. إن ممارسة هذه المهارات من خلال لعب الأدوار مع الأطفال الآخرين يمكن أن تساعد الطفل على تطوير فهم أفضل لدوره هو في التفاعلات الاجتماعية مع أصدقائه.

راقب/ي مشاعرك القوية: سوف يتمكن الأطفال الموهوبون، بما لديهم من قدرة على الاستشعار، أن يعرفوا أن لديك مشاعر معينة، سواء أفصحت عنها أم لا. وإذا حاولت إنكار مشاعرك أو إخفاءها، فلن تجني سوى عدم الثقة في تفاعلاتك معهم ولن تشعر إلا بمزيد من الغربة الانفعالية. فإذا قررت أن مشاعرك ذاتية جداً أو قوية بما لا يسمح بمشاركتها مع الآخرين، فإن بإمكانك أن تقول: «لدي في هذه اللحظة مشاعر قوية حول هذا الموضوع، وسوف أحتاج إلى بعض الوقت لكي تستقر هذه المشاعر قبل أن أتحدث معك عنها». إن هذه العبارة تجعل الأطفال على وعي بأن الراشدين قادرين على ضبط مشاعرهم وإدارتها بنجاح.

وهناك كلمة تحذير أخرى: بما أن الأطفال الموهوبين، بما لديهم من مفردات وقدرات استيعابية متطورة، يظهرون أنهم أكبر وأنضج مما توحى به أعمارهم الحقيقية، لذا فإن بعض الآباء قد ينزلون بمشاركتهم في مشاعر الراشدين أكثر مما ينبغي. وسوف يجد الآباء الذين يفعلون ذلك أنهم وقعوا في المحذور بصورة غير صحيحة، مستخدمين أطفالهم بدائل لعلاقاتهم وصدقاتهم التي تلائم الراشدين. فالأب المنزعج مثلاً من عصيان زوجته أو من إصرارها على الطلاق، يجب ألا يشارك طفله في التفاصيل الحالية والماضية التي تسببت في خيبة أمله، لأن الأطفال لا يملكون الخبرة الحياتية الكافية ولا القدرات الانفعالية المناسبة للتعامل مع هذه القضايا المعقدة، حتى لو كانوا قادرين على استيعابها. فالأطفال بحاجة إلى أن يبقوا أطفالاً ويعيشوا حياتهم كذلك، بعيداً عن الهموم والقضايا التي يفرضها عليهم الراشدون. والأب الذي يبحث عن دعم عاطفي من طفله في المواقف الصعبة يلقي عليه، ظلماً، حملاً ثقيلاً، حتى لو كان عمر الطفل ١٢ أو ١٥، أو حتى ٢٠ عاماً ويبدو ناضجاً بما يكفي للتعامل مع هذا الموقف. إن إخبار الطفل بالتفاصيل كافة يكلفه القيام بدور غير ملائم في رعاية والده. إن من المغري مشاركة الأطفال الأذكى الذين يكونون كالراشدين، لكن على الوالدين، في المواقف الصعبة، أن يبحثوا عن المساعدة والدعم من الأصدقاء والأقارب أو من الأشخاص المختصين، وليس من أطفالهم. كما يجب ألا يبدي أحد الوالدين أي تعليقات تثير تحيز الطفل ضد الطرف الآخر، لأن ذلك يحرم الطفل من فرصة إصدار أحكامه الخاصة وخياراته الذاتية، كما يترك آثاراً دائمة في علاقاته بالطرف الآخر. يضاف إلى ذلك أن هذا النوع من الكلام يكون له تأثير عكسي في الطرف الذي يقوم به. لكن الوالدين يستطيعان، طبعاً، أن يتفهما مشاعرهما في المواقف غير السارة، ويمكن أن يفعلا ذلك بقولهما مثلاً: «إننا حزنان جداً بسبب الطلاق، لكننا نتوق إلى حياة جديدة خالية من جميع المشاجرات التي كانت تحدث بيننا».

تجنب/ي الرسائل غير الحقيقية أو المتناقضة: قد تشير كلمات أحد الوالدين أحياناً إلى فكرة معينة أو شعور معين، لكن لغة جسده أو نبرة صوته قد تشير إلى معنى مختلف. فعندما قالت إحدى الأمهات لطفلي الموهوب بصوت فيه كثير من الرتابة: «إن عزفك على البيانو يتحسن فعلاً» كانت إجابة طفلها: «لماذا لم تقولي ذلك لوجهك؟» لقد ركز هذا الطفل على نقص الصدق في تعليق أمه.

إن نبرة الصوت ذات تأثير كبير. فعندما يقول أحد الوالدين لطفله: «أحب أن أعرف ماذا فعلت في منزل صديقك اليوم!» فإنه قد يعني أنه يود أن يعرف ذلك حقاً. ولكن هذه الكلمات ذاتها، عندما

يقولها الوالد بنبرة صوتية جافة، قد تنقل للطفل رسالة تهديد وكأنما عرف الوالد أن طفله فعل فعلاً سيئاً هناك. فهل النقد موجّه، مثلاً، للوقت الذي قضاه مع صديقه؟ فعندما تنقل الكلمات إلى الطفل معنى معيناً، وتنقل حركات الجسم أو تعابير الوجه معنى مختلفاً، فإن الطفل يُصاب بالارتباك. لذا يجب أن يكون الوالدان حذرين من إرسال رسائل إلى الطفل لا يقصدانها. ولا شك في أن الوالدين المتسلطين هما أكثر الناس عرضة لعمل ذلك. فعندما يستعمل أحد الوالدين نبرة صوتية خالية من الدفء والعاطفة، فإنه يكون قد أرسل رسالة عدم استحسان في الوقت الذي يكون قصده إرسال رسالة قبول واستحسان ودعم لأنشطة الطفل.

ومن الأمثلة الأخرى على التواصل غير الواضح مع الطفل، كيفية التحدث عن التقرير الذي يتضمن درجاته المدرسية. فالبعبارة «كشفت درجاتك هذا الفصل أفضل من الفصل الماضي» يمكن أن تحمل تفسيرات عدّة، اعتماداً على نبرة الصوت. فقد تعني مثلاً: «يا سلام! هذا عمل جبار! لقد استطعت أن ترفع درجاتك!»، أو «حسناً، هذه الدرجات جيدة، لكن ما زال بإمكانك أن تكون أفضل من ذلك». لذا، حاول أن تكون واضحاً في كل ما ترسله لطفلك في أثناء تواصلك معه من خلال التحكم في نبرة صوتك.

تواصل/ي مع طفلك باللمس. إن مجرد اللمس يمثل أسلوباً مهماً، مع أنه مهمّل، لتحسين التواصل بين الوالدين وطفلهما. لقد ابتعد المجتمع الأمريكي عن اللمس، حتى داخل العائلة، لكنّ هناك براهين جديدة على أن اللمس والمعانقة عمليتان مهمتان تشعران الشخص بأنه مرتبط بالآخرين. إن وضع يدك على كتف طفلك أو حول ذراعيه يساعده على التركيز والتأكد من أنه يسمع حقاً ما تقول له.

إن اللمس بالمعانقة، أو الربت باليدين على الظهر، أو تطويق الكتفين بذراعك، أو حتى المصافحة يمكن أن يساعد ذلك كله على تنمية مناخ ملائم للتواصل الجيد، لأن مظاهر اللمس هذه كلها تنقل رسالة من الترابط والرعاية. فبعض العائلات أكثر استعمالاً لأشكال اللمس من عائلات أخرى، وربما كانت العائلات المتحفظة بحاجة إلى إضافة اللمس إلى أساليبها في التفاعل.

قد يكون رد فعل المراهقين للمعانقة أنها للأطفال الصغار فقط، ويميلون إلى مقاومتها. فإذا حدث ذلك، يمكن للأم أن تقول له: «حسناً، أنت لا تحتاج إلى معانقة، لكنني أنا بحاجة إلى ذلك. أنا أمك، فاقترب مني وعانقني». والمعانقة من المراهق، حتى لو كانت بتردد تنقل رسالة مهمة - وهي أن هناك رابطة حب بين أفراد العائلة. فالمعانقة والضمّ، إذا بدأ الوالدان بهما عندما كان الطفل صغيراً، تسهل المحافظة عليهما بعد أن يكبر الطفل. لم يعد طفلك يجلس في حرك الآن، لكن رابطة جسمية دافئة سوف تجمع بينكما بين الحين والآخر.

تجنب إي استغابة الطفل: يحذر الراشدون عادة من استغابة راشدين آخرين، لكنهم أقل حذراً عندما يتعلق الأمر باستغابة الأطفال. بل إن أكثر الراشدين حذراً يفعلون ذلك أمام الطفل مباشرة. وتطلق سيلفيا ريم^٣ Sylvia Rimm على هذه الظاهرة مصطلح «التلميح» "referential speaking"، حيث يتحدث الآباء والمعلمون عن سلوك طفل (أو يشيرون إليه) على مسمع منه، وكأنه لا ينصت إليهم أو لا يستطيع أن يسمعهم. وقد يكون الحديث أحياناً عن أشياء حسنة فعلها الطفل، فيكون سماعه لها أمراً إيجابياً، ومثال ذلك "لقد حصل على درجة امتياز في امتحان الأحياء هذا الأسبوع. أليس ذلك

رائعاً؟ إنه كان يبذل جهده حقاً». لكن الحديث يكون في غالب الأحيان سلبياً، ومثال ذلك «كان يفترض أن يستعدّ "طلال" لامتحان الجبر ليلة أمس، لكنني وجدته يلعب بالفيديو في غرفته، لذا عاقبته مدة يومين. أتمنى فعلاً أن يكون قد تعلم شيئاً من هذا الموقف». يمكن أن تُقال هذه الأمور لصديق على الهاتف أو بين الوالدين نفسيهما على مسمع من الطفل. ومهما يكن الأمر، فإن الحديث عن الطفل بهذه الطريقة وعلى مسمع منه يُعدّ أمراً غير مناسب.

ونظراً إلى حساسية الأطفال الموهوبين الزائدة وسعيهم نحو الكمال، فإنك سوف تلحق بهم أذى عميقاً إذا سمعوك تحدث الآخرين عن هفواتهم ومشكلاتهم. فليس من العدل ولا من المقبول عند الطفل، كما هو عند الكبار، أن تنشر مشكلاتهم على الملأ، وقد يؤدي ذلك إلى عدم ثقة الطفل بالراشدين الذين يفعلون ذلك. وتذكر أن الأطفال الموهوبين، كغيرهم من الأطفال، يحاولون إدارة المعلومات المتعلقة بهم - لذا فإن إفشاء أسرارهم، لا سيّما السلبية منها، قد يوئد فيهم الامتعاض والغضب. على حين يفهم الأطفال الموهوبون الأحاديث التي يسمعونها مصادفة، فإنهم قد يسيئون فهم التعليقات، مما يزيد الطين بلّة. وقد يلصق الأذى الناجم عن هذه التعليقات بالطفل مدة طويلة يمكن أن يدمر ثقة الطفل بك بوصفك والدًا محببًا له. ويمكن أن يصبح التواصل داخل العائلة محدودًا أو متوترًا نتيجة لهذه المواقف، سواء أكان الطفل دقيقًا أم غير دقيق في إدراكه أو فهمه لها. فإذا كنت تريد حقًا التحدث عن أطفالك أمام الآخرين، فافعل ذلك عندما يكونون بعيدين ولا يستطيعون سماع ما تقوله عنهم. وإذا رغبت في أن تشارك الآخرين في بعض الإحباطات التي تشعر بها من طفلك، فافصل دائماً بين السلوك والطفل، وافعل كل ما بوسعك كي تضمن أن يبقى الحديث سرّاً بينك وبين صديق تثق في احتفاظه بما يسمع من تعليقات.

كافي/ي الطفل على صدقه وأمانته: يريد الأطفال الموهوبون عادة أن يفعلوا الشيء الصحيح ولكنهم كغيرهم من الأطفال، قد ينسون بعض القوانين، لا سيّما إذا كانوا في عجلة من أمرهم لإنجاز شيء مثير. فقد تلاحظ الأم أن بضع قطع من الحلوى قد فقدت من إناء الحلوى، ويعترف الطفل أنه فعلاً أخذ قطعة أو قطعتين منها. عندئذ، قد يكون من المفيد أن تقول لطفلة بنبرة مرحة: «حسنًا، إنني شاكر لك أنك أحببت الحلوى التي صنعتها، فأخذت بعضها خلسة، لكنني أقدر لك أيضًا أمانتك وصدقك في إخباري بذلك. أرجو أن تكون دائماً أميناً وصادقاً معي كما فعلت اليوم». إن مثل هذا الأسلوب الخالي من التهديد يجنبك المواجهة مع طفلك على حادثة بسيطة، وينمي بينكما التواصل الإيجابي في المستقبل. إن عدم تأديب الطفل وعقابه بصورة علنية أمام الآخرين قد يؤدي إلى نتائج أفضل من التقليل من شأنه بقولك: «أنت تعرف القانون الذي نلتزم به بخصوص تناول الحلوى بين الوجبات! إياك أن تضطرنني إلى القبض عليك وأنت متورط بهذا العمل ثانية». هذا الأسلوب الغاضب يخبر طفلك بأنك لا تثقين به، ويجعله يتساءل فيما إذا كان قد أصبح لصاً. إنه أسلوب يوحي إلى الطفل افتراضات سلبية تتعلق به وبسلوكه معاً.

إن من الأفضل لولي الأمر، في معظم الأحيان، عندما يعلم أن طفله قد قام بعمل يخالف القوانين، أن يجعله يعرف أنك تعرف ذلك، بدلاً من أن تطالبه بالاعتراف. تجنب أن تخلق موقفاً يضطر

الطفل فيه إلى الكذب أو إنكار الفعل الذي قام به. ففي هذه الحالة يكون الطفل في موقف الخاسر في الحالات كلها، فهو سوف يعاقب إذا قبض عليه وهو يكذب، ولكنه سيعاقب أيضًا فيما لو كان صادقًا معك. فإذا كنت تعرف ما فعله الطفل، فتجنب محاكمته، وعاقبه رأسًا إذا كان ذلك ضروريًا.

قد يخرج طفلك من المنزل، مثلاً، ويترك الباب الخارجي مفتوحًا على مصراعيه، مع أن الأم قد نهته أكثر من مرة أن يغلق الباب عندما يخرج. والآن هناك ذباب على رفوف مطبخك وحول الطعام الذي تنهمكين في إعداده. وليس هناك أي شخص آخر قد يكون ترك الباب مفتوحًا، لذا فمن الواضح أن الطفل هو من فعل ذلك. ففي هذه الحالة، لا تسألني الطفل فيما إذا كان قد ترك الباب مفتوحًا، فتفسحي المجال أمامه للكذب، وإنما قللي له ببساطة: «لقد لاحظت أنك تركت الباب الخارجي مفتوحًا، فماذا يجب أن نفعل، في رأيك، لكي نجعلك تتذكر أن تغلقه خلفك؟» عندما تفعلين ذلك، فإنك سوف تتجنبين لقاء محاضرة غاضبة على مسامع الطفل تبدأ بالصراخ عليه: «متى ستتذكر أن تغلق الباب خلفك عندما تخرج، بالله عليك؟»

ويمكنك، بدلاً من ذلك أن تقولي له: «أتمنى حقًا أن تحاول أن تتذكر إغلاق الباب خلفك في المرات القادمة لأنني لا أحب هذا الذباب في مطبخي. هلاً ساعدتني الآن على إخراج هذه الذبابات والقضاء عليه بعضا الذباب هذه؟» إن الاستجابة للخطأ بهذه الطريقة تفترض أن الطفل يريد أن يفعل الشيء الصحيح، ولكنه نسي ذلك وهو الآن مستعد للمساعدة على طرد الذباب والتخلص منه. ولا شك في أن هذه الطريقة في معالجة الموقف أفضل من إسماع الطفل محاضرة «كم مرة.....»، التي تفترض أن الطفل حالة ميثوس منها وأنه لن يتحسن.

وإذا كان طفلك صادقًا في ترك الباب مفتوحًا أو في تناول قطع الحلوى، فلا تستعملي هاتين القصتين لمعاقبة الطفل أو إغاظته أو إحراجه في مواقف لاحقة. ولا تنشري قصة قطع الحلوى المفقودة بين أفراد العائلة، فذلك لا يؤدي إلا إلى قتل الأمانة والصدق وإعاقة التواصل في المستقبل بل اتركي ذلك للمستقبل، فقد يروي الطفل نفسه هذه القصة عندما يكبر ويضحك منها مع الآخرين.

ويمكن تشجيع الطفل على الأمانة والصدق بطرق أخرى، كما في المثال التالي: فُقد من درج أحد الوالدين بعض القطع النقدية المعدنية. وأخبرت الأم زوجها أن «نايف» هو في الغالب من فعل ذلك؛ لأنها رآته خارجًا من غرفتهما، وأن النقود كانت موجودة قبل دخوله وأنها فُقدت بعد خروجه من الغرفة. تناقش الوالدان معًا فيما يجب عليهما فعله. لكن قبل أن يتخذا أي قرار، بادر «نايف» أباه بقوله «أبي، هل لي أن أحصل على النقود التي في درجك؟» (لكن نايف لم يذكر أن النقود كانت في جيبه هو في هذه اللحظة). فقال والده: «لا، ليس هذه المرة، إذ إنني أحتاج إليها لأمر ما، لكن شكرًا لك على أنك سألتني. إنني أقدر لك صدقك وأمانتك وعدم أخذك لأي شيء دون إذن. إن من دواعي سروري أن أعرف أنك لن تأخذ شيئًا ليس لك.» عندئذ تسلل الطفل، في أول فرصة سنحت له، إلى الغرفة وأعاد النقود إلى مكانها. ومن المحتمل ألا يأخذ هذا الطفل شيئًا ليس له في المستقبل. فقد أنقذ ماء وجهه، وعلمه والده مجموعة من القيم، وشعر «الطفل» بالرضا عن نفسه. كان من الممكن أن يقود هذا المشهد إلى نتائج مختلفة تمامًا وبطريقة سلبية لو أن الوالدين ألقيا على طفلهما محاضرة طويلة ثم عاقباه على فعلته.

افتح اي في بيتك قسماً للشكاوى. معظم الدوائر الناجحة تفتح أقساماً للشكاوى، كما أن عددًا كبيراً من العائلات الناجحة تفعل ذلك أيضًا. فطفلك يحتاج إلى فرص يعبر فيها عن مشاعره التي تشمل شكاواه وتذمراته. وإن لم يحدث ذلك، فإنه سيشعر أن آراءه غير مهمة، ويستمر في تجميع هذه الشكاوى حتى تصبح حملاً ثقیلاً. وقد يفاجئك بعد ذلك بانفجار هذه المشاعر الغاضبة في يوم من الأيام. ويمكنك أن تشجع طفلك على الكلام بقولك مثلاً: «بيدو أنك غير سعيد لسبب ما. هل تود أن تكلم أحد أعضاء قسم الشكاوى؟»، أو «دعنا نكتب شكواك على ورقة لاصقة ونثبتها على لوحة الإعلانات ونناقشها في الاجتماع القادم مع أفراد العائلة».

احترم اي مشاعر طفلك ولا تتدخل اي فيها. بعض المشاعر والمواقف خاصة جداً. والخصوصية شرط ضروري حتى يكون الطفل شخصاً مستقلاً ومنفصلاً عن الآخرين. لذا احترم طفلك بأن تسمح بوجود بعض الجوانب من حياته له فيها خصوصية فعلية، ولا تشاركه أنت ولا غيرك دون إذنه. وقد يكون هذا إجراءً مخيفاً لآباء المراهقين الذين يرغبون في معرفة كل ما يفعله أطفالهم ويفكرون فيه من أجل ضمان سلامتهم. لكن التدقيق الشديد على ما يفعله الطفل ينقل له قلة الاحترام وعدم الاهتمام بمشاعره الخاصة. وقد تحتاج إلى عملية متوازنة جداً تقرر من خلالها ما ينبغي لك أن تعرفه، وما يمكن أن تسمح بحدوثه دون معرفتك أو موافقتك.

قد يتصرف الأطفال الموهوبون أحياناً، لا سيما إذا كانوا يعتقدون أن مشاعرهم غير مقبولة من الآخرين، وكأنهم لا مشاعر لهم ولا يهتمون أبداً بما يفكر فيه الآخرون. هؤلاء الأطفال هم، في معظم الأحيان، الذين قرروا أن مشاعرهم حساسة جداً ولا يمكن التعامل معها، أو أنهم يخافون ألا تكون هذه المشاعر مقبولة أو محترمة إذا عبروا عنها. لذا فهم يعتقدون أن من الأسلم التظاهر بعدم وجود هذه المشاعر أصلاً. ولا شك في أن احترامك ودعمك المتواصلين سوف يسمحان لهم بإعادة النظر في هذه العزلة الانفعالية التي يعيشون فيها.

تعامل اي مع المواضيع الحساسة بكل عناية: قد يشعر الأطفال الموهوبون أن من السهل جرحهم عندما يعبرون عن مشاعرهم أمام الجميع، لأن مشاعرهم عادة تكون قوية جداً. ومع أن مشاركة الآخرين في المشاعر والمخاوف والآمال العميقة يمكن أن تؤدي إلى التقارب والود، إلا أنها تزيد احتمال أن يصاب الشخص بالأذى. يتعلم بعض الأطفال الموهوبين ألا يشاركوا غيرهم في انفعالاتهم بعد أن يصابوا بالأذى مرة واحدة، وقد يقررون عندئذ أن يختاروا الوحدة بدلاً من أن يخاطروا في إمكانية أن يتعرضوا للنقد أو سوء الفهم، أو التقليل من شأنهم، أو حتى للسخرية. وقد يبدو هؤلاء الأطفال بلا مشاعر من الخارج، ولكنهم قد يشعرون بانفعالات عميقة من داخلهم.

قد يكون من الضروري أحياناً مناقشة بعض الموضوعات الحساسة، ولكنك لا تريد في الوقت نفسه أن تواجه طفلك أو تحرجه. وقد اكتشف بعض الوالدين أن حديثهم مع أطفالهم يكون أفضل عندما يتجنبون الاتصال البصري معهم، كأن يتواصلون معهم وهم نائمون ليلاً مثلاً، عند إطفاء الضوء في غرفهم، أو وهم يمشون معاً أو في السيارة. وهناك أسلوب آخر هو أن يقوم أحد الوالدين بالدورين معاً في أثناء الحديث. فقد يقول هذا الوالد، مثلاً: «لا أدري، إن كنت قد فكرت يوماً في الموضوع ...

ولكن إذا كنت فكرت فيه فعلاً، فإنني أريدك أن تعرف أن...». ثم يقول هذا الوالد بعدئذٍ «وإذا كنت شعرت عندئذٍ بكذا... فإن ما أريده أن تعرفه هو...». يقتصر دور الطفل في هذه الحالة على الإنصات للوالد؛ ويطرح والده الأفكار والمشاعر كافة التي يمكن أن يكون طفله قد شعر بها، ويضيف إليها بعض التعليقات الداعمة للطفل.

ويمكن اللجوء إلى التواصل بالكتابة إذا شعر الطفل بالحرَج من التحدث عن بعض الموضوعات الحساسة مباشرة مع والده. إذ يمكن أن يكتب الطفل ملاحظة أو سؤالاً في دفتر الملاحظات ويضعه في متناول يد والده. ويجب الوالد عن السؤال أو الملاحظة ويترك الدفتر في مكانه كي يجده الطفل حيثما تركه. وتكون نتيجة ذلك أن يتطور حوار مكتوب بين الطفل ووالده.

قَدْرَاي الفروق المزاجية بين أطفالك: يختلف الأطفال في أمزجتهم، بما في ذلك كيفية التعبير عن مشاعرهم. فبعض الأطفال عاديون، وبعضهم يتقنون التعبير الدرامي عن مشاعرهم، وآخرون منطقيون ولكنهم يعيرون اهتماماً قليلاً لمشاعر الآخرين. فالأطفال الموهوبون الذين يعانون من اضطراب أو متلازمة «أسبيرجر» Asperger (انظر فصل ١٢ لمعرفة المزيد) يقعون في الطرف الأقصى من طيف المزاج، ويجدون صعوبة بالغة في التواصل مع الآخرين وفهم مشاعرهم.

وما لم يفهم الوالدان الفروق بين أطفالهم، فإنهم قد يوصلون أطفالهم إلى ما لا يرغبون فيه. وتكون نتيجة ذلك أن يشعر الوالدان بالإحباط ويشعر الطفل أنه قد أسىء فهمه. وكما قال أحد الوالدين ذات مرة: «أصبح التواصل بيني وبين طفلي أسهل بكثير بعدما أدركت أنني لا أستطيع تحويل شجرة البلوط إلى شجرة زيتون». فالأطفال المختلفون يتطلبون أساليب مختلفة من التواصل.

تجنب إي الملاحظات الزائدة عن الحد. قد يعتقد الوالدان أحياناً أنهما «يجمعان الملاحظات» فقط عن كيفية سير الأمور وعن نظرتهما إليها، فقد يقول أحد الوالدين مثلاً: «أرى أن غرفتك تعجّ بالفوضى اليوم»، أو يقول «يبدو أنك قررت عدم إكمال واجبك المنزلي»، أو «يبدو أنك قد قررت عدم الاتصال بصديقك يوم عيد ميلاده». إن من المهم أن تنظر إلى هذه الملاحظات وكيف ستوجه لطفلك اقتراحات استناداً إليها. هل تتضمن الملاحظات انتقاداً للطفل لأنه لا يفعل أمراً كما يجب؟ أو لأنه لم يتقن العمل الذي أوكل إليه؟ هل تشير الملاحظات إلى عدم موافقتك على الفعل أو أن على الطفل أن يفعل شيئاً آخر؟ إن هذه الأنواع من العبارات توجه رسالة مفادها «لا أعتقد أنك كفء ومقتدر، لذا سوف أقدم لك بعض التوجيهات أو الاقتراحات». إن توجيه ملاحظة واحدة لن يترك أثراً رئيساً في علاقتك بالطفل؛ لكن توجيه سلسلة من الملاحظات يمكن أن يكون ذا أثر تقويمي للطفل. إن كثرة الملاحظات توحى بأن الوالدين يراقبان سلوك الطفل عن كثب ويقومانه باستمرار.

تجنب إي الوعود الكثيرة، فقد يكون الوفاء بها صعباً: قد يطلب طفلك منك أحياناً أن تحفظ له سرّاً أو تعده بشيء قبل أن يطلعك على التفاصيل كافة. وبما أنك لا تعرف ما سيخبرك به الطفل، فإنه لا يمكنك أن توافق على هذه الوعود الكبيرة. ومن المهم، في هذه المواقف، أن تكون صادقاً مع طفلك حول ما يمكن وما لا يمكن أن تعده به. يمكنك أن تستجيب لطلبه بقولك أشياء مثل، «لا أستطيع تقديم وعود بلا قيد ولا شرط، لكنني سأبذل كل ما في وسعي للحفاظ على خصوصيتك». ويجب ألا يعد الوالد أحياناً بالمحافظة على سرٍّ معين إذا كان الموقف يتضمن شخصاً في مشكلة أو في ورطة،

كأن يخبرك الطفل مثلاً أن أحد أصدقائه يعاني من النحافة المفرطة أو السمنة الزائدة عن الحد، أو أنه يفكر في الانتحار، أو أنه متورط في نشاط خطر كالاستعمال غير القانوني للعقاقير. ففي مثل هذه المواقف التي يتعرض فيها أشخاص إلى احتمالات الموت أو الحياة، يجب اتخاذ قرار مناسب كأن تخبر الوالدين أو السلطات المختصة مثلاً. لذا ساعد طفلك على أن يفهم أن أولى أولوياتك هي أن تحافظ على سلامته (وربما سلامة الآخرين أيضاً)، وأنت لا تستطيع أن تعده بشيء يشكل خطراً على ذلك. لا شك في أن علاقتك بطفلك مهمة ولكن لا يمكن أن تبقى هذه العلاقة رهناً بوعده تقطعه على نفسك لهذا الطفل.

استعمل اي ملاحظات مكتوبة تلصق هنا وهناك: يمكن أن تستعمل الملاحظات المكتوبة بخط اليد لتنمية التوصل وتزويد المتلقي برسائل قوية. فالملاحظة المكتوبة بخط اليد تنقل مشاعرك إضافة إلى أهمية الرسالة: «إنني مهتم جداً بهذا الأمر لدرجة أنني خصصت وقتاً معيناً لكتابة هذه الملاحظة». إن ملاحظة سريعة كقولك: «أحبك»، أو «حظاً جيداً في الاختبار» ووضعها خلسة في صندوق الطعام أو حقيبة الظهر تزود الطفل بدافع قوي جداً في أثناء اليوم. كما أن هذه الملاحظات يمكن أن تمتدح السلوك كقولك: «عمل رائع في مشروع العلوم!» وقد يخفي بعض الوالدين ملاحظات كتب عليها «أفكر فيك دائماً» في أماكن متفرقة من المنزل لتذكير الطفل، في أوقات غير متوقعة، بأهمية العلاقة التي تربطه بوالده

حل مشكلات التوصل

سوف يدخل معك الأطفال الموهوبون في جدال لا مفر منه، بسبب ذكائهم المرتفع وطبيعتهم التي تتميز بقوة الإرادة. وقد يكون الجدال أحياناً ساخناً يقود إلى طريق مسدود أو إلى صراع مؤلم وقوي. لذا ننصحك في مثل هذه الحالات أن تعود خطوة إلى الوراء وتقوم الموقف برمته بالإضافة إلى المشاعر التي انطوى عليها ذلك الموقف. لماذا استجبت للطفل بتلك الطريقة؟ كيف كان يمكن أن يحدث ذلك الموقف بطريقة مختلفة؟ لم كانت مشاعرك ومشاعرهم قوية جداً في هذه القضية؟ وبعد أن تنتهي من تعرف المشاعر وتقبلها وتتعامل معها بصورة أفضل، فإن بإمكانك أن تتناول المسألة وتحاول حلها. وهذا لا يعني أن الأشياء سوف تحل بسهولة؛ فعندما تكون الانفعالات قوية فلا بد من وجود سبب لذلك. ولا شك في أن لدى الطرفين أفكاراً معينة يمكن أن تتصادم، وأن التسوية قد تحتاج إلى وقت طويل وجهود كبيرة.

إن الأساليب التي وصفت في هذا الفصل تقوي التوصل وتؤدي إلى حلول محتملة للمشكلات الناجمة عن العلاقات الأسرية. وهذه المشكلات التواصلية لا تظهر، في حالات كثيرة، بين عشية وضحاها، ولا يمكن حلها أيضاً في ليلة واحدة. يتطلب التوصل الجيد، كما هو الحال في حل المشكلة، جهوداً ورغبة مستمرة في العمل. وأنت، أيها الوالد، لا يمكن أن تفرض التوصل فرضاً، ولكن يمكنك أن تبادر إلى القيام ببعض الممارسات التي تحسن التفاعلات الإيجابية وتشجع عليها.

